الكلـمــة الطيبـــة

لقد أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعم كثيرة لا تُعُد ولا تحصى، قال تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[النحل:١٨]، ومن أعظم نعم الله (عز وجل) على الإنسان نعمة البيان، قال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}[الرحمن:١ـ ٤]، فبكلمة يدخل الإنسان الإسلام ، وبكلمة يخرج منه، وبها يدخل الجنة ، وبها يُحرم منها، وبكلمة تُستحل الفروج ، وبكلمة تُحرّم ، وبكلمة تُبنى أُسر ، وبأخرى تُهدم ، وبكلمة تتقدم الأمم ، و بكلمة تتأخر .

فالكلمة عنوان الإنسان ، ووسيلة اتصاله بالآخر ، فهي إما أن تبلغ بالإنسان أرقى الدرجات ، أو تهوي به في أسفل الدركات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (رواه البخاري).

وقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة تدعونا إلى الكلمة الطيبة لجميع الناس دون تفرقة بينهم ، قال تعالى:{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة:٨٣]، وقال:{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[الإسراء:٥٣]. فالكلمة الطيبة تحفظ المودة ، وتديم الصحبة، وتحول العدوّ إلى صديق ، وتقلب الضغائن إلى محبة ، وتمنعُ كيدَ الشيطان ، قال تعالى:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[فصلت:٣٤] . وقال تعالى:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} [المؤمنون: ٩٦].

كما أن الكلمة الطيبة تؤلِّفُ القلوبَ ، وتُصلح النفوسَ ، وتُذهب الأحزانَ، وتُزيل الغضبَ، وتُشعر بالرضا والسعادة لا سيما إذا رافقتها ابتسامة صادقة ، فعن أبى ذرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ) (رواه الترمذي)، وقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الكلمة الطيبة دليلًا على إيمان صاحبها فقال: (... وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) (رواه البخاري). ومن ثمَّ فإن الكلمة الطيبة سبب في الخير الكثير ، فبالكلمة الطيبة تدوم الألفة بين الآباء والأبناء ، وبها يمتلك الآباء قلوب الأبناء ويستميلونهم.

ولقد أعطانا القرآن الكريم نماذج كثيرة لأثر الكلمة الطيبة على نفوس الأبناء ، ومن ذلك قصة إبراهيم مع ولده إسماعيل (عليهما السلام)، وكذلك يعقوب (عليه السلام) مع أولاده ، ولقمان الحكيم مع ابنه. فبها تكون مودَّة الأبناء بالآباء ، قال تعالى: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا}[الإسراء: ٢٣].

ولا يخفَى ما للكلمة من أثرٍ طيِّبٍ في العلاقة بين الجيران ، فالإحسان إلى الجيران بالكلمة يكون سببًا في دخول الجنة، والإساءةُ إليهم قد تكون سببًا في دخول النار ، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)، قَالُوا: وَفُلَانَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصَّدَّقُ بِأَثْوَار، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) (الأدب المفرد).

وللكلمة أيضًا أثرها الطيب في حسن العلاقة بين المسلم وغيره ، قال تعالى:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران:٦٤]، وحتى مع الأعداء أمرنا الله بها، قال تعالى:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[طه:٤٣-٤٤]، تصدَّى رجلٌ للرشيد فقال: إني أريد أن أغلظ عليك في المقال ، فهل أنت محتمل؟ قال: لا ؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى من كان شرًّا مني! فقال :{فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[طه: ٤٤] (محاضرات الأدباء).

وبها تكون دعوة المخالفين والتحدث معهم بالحسنى، قال تعالى:{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[العنكبوت:٤٦].

على أن الكلمة الطيبة للفقراء تكون إحسانًا أفضل من عطاء يتبعه مَنٌّ وأذى، قال تعالى:{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[البقرة:٢٦٣].

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يكره الكلمة الخبيثة حتى مع الحيوان، فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ

بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَتَضَايَقَ بِهِمِ الْجَبَلُ، فَقَالَتْ: حَلْ، اللهُمَّ الْعَنْهَا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ) (رواه مسلم).

كما نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن اللعن حتى وإن كان ذلك للريح ، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أَنَّ رَجُلًا نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَلَعَنَهَا ـ فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا تَلْعَنْهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ) (رواه الترمذي).

على أن الكلمة الخبيثة تسبب الفرقة والتنافر بين أبناء المجتمع الواحد مما يهدد وحدة النسيج الاجتماعي ، فيؤدي إلى تشرذم المجتمع وتشتته ، وهذا هو السبب في ظهور كثير من الآفات التي بسببها تقطعت الأرحام، وساء الجوار، ففسدت العلاقات الاجتماعية بين الجميع ، والتي منها على سبيل المثال لا الحصر ، الغِيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، والجدال بالباطل، والكذب، والقذف ، والسباب واللعان بأساليب عديدة فيها خروج عن أقل قواعد الأدب ، مع أن المسلم ليس باللعَّان ولا الطعَّان ولا الفاحش ولا البذيء، كما في الصحيح عَنْ ابن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الْمُؤْمِنَ
لَيْسَ بِاللَّعَّانِ، وَلَا الطَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ) (رواه الترمذي).

فحريٌّ بالمسلم أن يضبط لسانه، ويحفظه من الزلل وأن يستعمله فيما فيه مصلحة ، فإن كان خيرًا تكلم وإلا سكت فالسكوت في هذه الحالة عبادة ، ولقد ذكر الحق سبحانه وتعالى من صفات المؤمنين الإعراض عن اللغو : وهو الكلام الذي لا نفع فيه فقال:{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}[المؤمنون: ٣]، ومن هنا ندرك أن الواجب الشرعي هنا لا يتمثل فقط في قول الخير والإمساك عن الشر ، بل في اجتناب اللغو الذي لا فائدة فيه.

ولما كان للكلمة خطورة كبيرة حث الإسلام على حفظ اللسان ، وعدم إطلاق العنان له، فكل ما يصدر عنه من أقوال محسوب له أو عليه، قال تعالى:{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[ق:١٨]، فاللسان أميرٌ على الجوارح ، فإن استقام استقامت وإن اعوجّ اعوجّت، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ قَالَ سَائِرُ الْجَسَدِ لِلِّسَانِ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، إِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، إِذَا اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا) (رواه الترمذي).

وقد بيَّن (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) أن اللسان هو المعوَّل عليه في إدخال الناس الجنة أو النار ، يقول (رضي الله عنه): كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ قَرِيبًا مِنْهُ...وفيه...ثُمَّ قَالَ : (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟)، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: (اكْفُفْ عَلَيْكَ هَذَا)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ إِنَّا لمؤاخذون بِمَا نَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ـ أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ ـ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) (رواه الإمام أحمد).

فما أحوج مجتمعنا الآن إلى الكلمة الطيبة ؛ لما لها من أثر طيب ، حيث الألفة والمحبة ، وإذابة الفرقة والشحناء ، فالكلمة الطيبة لها أثرها الطيب في صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب:٧٠-٧١].

فما أجمل الكلمة الطيبة التي تجعل الحياة مملوءة بالرحمة والمودة والمحبة بين الناس!!! ما أطيب الكلمة الطيبة التي تجمع ولا تفرق وتكون سبيلًا للألفة لا الفرقة !! فليكن كل منا صاحب كلمة طيبة ؛ لأنها تعبّر عن حقيقة قلب صاحبها ، فقد قال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور تغلي بما فيها ، وألسنتها مغارفها ، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه ،حلو .. حامض .. عذب .. أجاج .. وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه. (حلية الأولياء).